القلب المسكين[1]

ـ ١ ـ

أقبل عليَّ صاحبي الأديب ، وقال : انظر ، هذه هي ، وقد حلَّت بهذا البلد وما لي عهدٌ بها منذ سنةٍ . ومدَّ إليَّ يده ، فنظرت إلى صورة امرأةٍ كأحسن النِّساء وجهاً ، وجسماً تتأوَّد[2] في غِلالةٍ من اللاذ[3] .

وكأنَّ شعاع الضُّحى في وجهها ، وكأنها القمر طالعاً من غيمةٍ ، ويكاد صدرُها يتنهَّدُ وهي صورةٌ ، وتبدو هيئة فمها كأنَّها وَعْدٌ بقبلةٍ ، وفي عينيها نظرةٌ كالسُّكوت بعد الَّتي قبَّلت همساً بينها ، وبين محبِّها .

فقلت : هذه صورة ما أراها قد رسمها إلا اثنان : المصوِّر ، وإبليس ، فمن هي ؟ .

قال : سَلها ، أما تراها تكاد تثب من الورقة ؟ إنَّها إلا تخبرك بشيءٍ ؛ أخبرك عنها وجهها : إنَّها أجمل النِّساء ، وأظرفهنَّ ، وأحسن من شاهدتَ وجهاً ، وأعيناً ، وثغراً ، وجيداً ، والَّذي بعد ذلك .

قلت : ويحك ! لقد شعرتَ بعدي ، إنَّ هذا شعرٌ موزون :

وأحسـنُ مَـنْ شـاهـدتَ وجهـاً وأعينـاً ... وثغـراً وجيـداً والَّـذي بعـد ذلكـا

قال : إنَّ شيطان هذه لا يكون إلا شاعراً ، ألستَ تراه ناظماً من فنونها ، على الرَّسم شعراً معجزاً كلَّ شاعرٍ ؟ .

قلت : وهذا أيضاً شعرٌ موزونٌ :

ألسْـتَ تـراهُ نـاظمـاً مِـنْ فنـونهـا ... على الرَّسمِ شِعراً معجزاً كلَّ شاعرِ

---

(١) انظر قصَّة صاحبة هذا القلب المسكين في « عودٍ على بدء » من كتابنا : « حياة الرَّافعي » وهي هي صاحبة « الجمال البائس » . (س) .

(٢) « تتأود » : تنحني ، وتنعطف .

(٣) « اللاذ » : الحرير الصِّيني الرَّقيق . و« الغِلالة » : مثل القميص الَّذي تحت الثِّياب . (ع) .

قال : بلى والله ! إنَّه شيطانها ، يريك لهذا الجسم روحاً رشيقةً ، تلين كلين الجسم ، بل هي أرشق .

قلت : وهذا أيضاً ، والقافية الَّتي بعد هذا البيت : وبها شَقوا .

فضحك صاحبُنا ، وقال : حرِّك الصُّورة في يدك ، فإنَّك ستراها ، وما تشكُّ أنها ترقص .

قلت : الآن انقطع شيطانك ، فهذا ليس شعراً ، ولا يجيء منه وزن .

وتضاحكا ، وضحك الشَّيطان ، وظهر الوجه الجميل في الرَّسم كأنَّه يضحك .

* * *

قال صاحب القلب المسكين : أُنظر إلى هاتين العينين ، إنَّها من العيون الَّتي تفتن الرَّجل ، وتسحره متى نظرت إليه ، وتعذِّبه ، وتضنيه متى غابت عنه . إنَّ في شعاعهما قدرةً على وضع النُّور في القلب السَّعيد ، كما أنَّ في سوادهما القدرة على وضع الظُّلمة في القلب المهجور .

وانظر إلى هذا الفم ، إلى هذا الفم الَّذي تعجز كلُّ حدائق الأرض أن تخرج وردةً حمراء تشبهه .

وانظر إلى هذا الجيد تحته ذلك الصَّدر العاري ، فوقه ذلك الوجه المشرق ، تلك ثلاثة أنواع من الضَّوء ، أمَّا الوجه ؛ ففيه روح الشَّمس ، وأمَّا الجيد ؛ ففيه روح النَّجم ، وأمَّا الصَّدر ؛ ففيه روحُ القمر الضَّاحي .

انظر إلى هذه المسافة البيضاء من أعلى جبينها إلى أسفل نهديها ، تلك منطقة القبلات في جغرافيا هذا الجمال .

انظر إلى الصَّدر يحمل ذينك الثَّديين النَّاهدَيْن ؛ إنَّه المعرض الَّذي اختارته الطَّبيعة من جسم المرأة الجميلة للإعلان عن ثمار البستان .

انظر إلى النَّهدين لِمَ برزا في صدر المرأة إلا إذا كانا يتحدَّيان الصَّدر الآخر .

وانظر لهذا الخصر الدَّقيق ، وما فوقه ، وما تحته ، ألا تراه فتنةً متواضعةً بين فتنتين متكبِّرتين .

انظر إليها كلِّها ، انظر إلى كلِّ هذا الجمال ، وهذا السِّحر ، وهذا الإغراء ؛ ألا

ترى الكنز الَّذي يحوِّل القلب إلى لصٍّ .

هذه مخلوقةٌ مرَّتين : إحداهما من الله في العالم ، والأخرى من حبِّي أنا في نفسي أنا ، فكلمة « جميلة » الَّتي تصف المرأة التَّامَّة ، لا تصفها هي بعض الوصف ، ورسمُها هذا الَّذي تراه إنَّما هو حدودٌ لتلك الرُّوح الَّتي فيها قوَّة التَّسلُّط ، وهيهات يُظهِر من تلك الرُّوح إلا ما يُظهِر من الجمرة المشتعلة رسمُ هذه الجمرة في ورقةٍ !

أشهد ما نظرت مرَّة إلى هذا الرَّسم ، ثمَّ نظرت إليها إلا وجدت الفرق بينهما في نفسها وبينهما في الصُّورة ، كأنَّه اعتذارٌ ناطقٌ من آلة التَّصوير بأنَّها ليست إلا أداةً .

* * *

قلت : اللَّهمَّ غفراً ! ثمَّ ماذا يا صديقي المجنون ؟ .

فأطرق الأديب مهموماً ، وكانت أفكاره تنفجر في دماغه انفجاراً هنا ، وانفجاراً هناك ؛ ثمَّ رفع إليَّ رأسه ، وقال :

هذه الغانية[1] قد حبست أفكاري كلَّها في فكرةٍ واحدةٍ منها هي ، وأغلقت أبواب نفسي ، ومنافذها إلى الدُّنيا ، وألهبت في دمي جمرةً من جهنَّم فيها عذاب الإحراق ، وليس فيها الإحراق نفسه ؛ كيلا ينتهي منها العذاب .

وبيننا حبٌّ بغيرِ طريقة الحبّ ، فإنَّ طبيعتي الرُّوحانية الكاملة تهوى فيها طبيعتها البشريَّة النَّاقصة ، فأنا أمازجها بروحي ، فأتألَّم لها ، وأتجنَّبها بجسمي ، فأتألَّم بها .

حبٌّ عقيمٌ مهما يكن من شيءٍ فيه ؛ لا يكن فيه شيءٌ من الواقع .

حبٌّ عجيبٌ لا تنتفي منه آلامه ، ولا تكون فيه لذَّاته .

حبٌّ معقَّدٌ لا يزال يلقي المسألة بعد المسألة ، ثمَّ يرفض الحلَّ الَّذي لا تُحلُّ المسألةُ إلا به .

حبٌّ أحمق ؛ يعشق المرأة المبذولة للنَّاس ، ولا يراها لنفسه إلا قدِّيسةً ، لا مطمع فيها .

---

(١) « الغانية » : المرأة الغنية بحسنها وجمالها عن الزينة .

حبٌّ أبله ، لا يزال في حقائق الدُّنيا كالمنتظر أن تقع على شفتيه قبلةٌ من الفم الَّذي في الصُّورة .

حبٌّ مجنونٌ كالَّذي يرى الحسناء أمام مرآتها ، فيقول لها : اذهبي أنت ، وستبقى لي هذه الَّتي في المرآة .

* * *

قلت : اللَّهمَّ رحمةً ! ثمَّ ماذا يا صاحبي المسكين ؟

قال : ثمَّ هذه الَّتي أحبُّها هي التي لا أريد الاستمتاع بها ، ولا أطيقه ، ولا أجد في طبيعتي جرأةً عليه ، فكأنَّها الذَّهب ، وكأنني الفقير ؛ الذي لا يريد أن يكون لصّاً ؛ يقول له شيطان المال : تستطيع أن تطمع ، ويقول له شيطان الحاجة : وتستطيع أن تفعل ، ويقول هو لنفسه : لا أستطيع إلا الفضيلة !

إنَّ عذاب هذا بشيطانين لا بشيطانٍ واحدٍ ، غير أنَّ لذَّته في انتصاره كلذَّة مَنْ يقهر بطلين ، كلاهما أقوى منه ، وأشدُّ .

* * *

قلت : اللَّهمَّ عفواً ، ثُمَّ ماذا يا قاهر الشيطانين ؟ !

فأطرق مليّاً كالَّذي ينظر في أمرٍ قد حيَّره ، لا يتوجَّه له في أمره وجهٌ ، ثمَّ تنهَّد ، وقال : يا طول علَّة قلبي ! من أين أجيء لأحلامي بغير ما تجيء الأحلام به ، وإنَّما هي تحت النَّوم ، ووراء العقل ، وفوق الإرادة ؟ لقد بلغ بي هواها : أنَّ كلَّ كلمةٍ من كلام الحبِّ في كتابٍ ، أو روايةٍ ، أو شعرٍ ، أو حديثٍ ، أراها موجَّهةً إليَّ أنا .

ثمَّ قال : انطلق بنا فتراها حتى تعلم منها علماً ، فهي في ذلك المسرح ، هي في ذلك الشَّرِّ ، هي في تلك الظُّلمات ، هي اللُّؤلوة لا تتربَّى لؤلؤةً إلا في أعماق بحر .

* * *

وذهبنا إلى مسرحٍ يقوم في حديقةٍ غنَّاءَ مترامية الجهات ، بعيدة الأطراف ، تظهر تحت اللَّيل من ظلماتها ، وأنوارها كأنَّها مُثقلةٌ بمعاني الهجر ، والعشق .

وتقدَّمنا نسير في الغَبش ، فقال صاحبنا المحبُّ : إنِّي لأشعر أنَّ الظَّلام هنا حيٌّ كأنَّ فيه غوامض قلبٍ كبيرٍ ، فما أرى فرقاً بين أن أجلس فيه ، وبين الجلوس إلى فيلسوفٍ عظيمٍ مهمومٍ بهمِّ اللانهاية؛ فتعال نبرز إلى ذلك النُّور حول المسرح لنراها ، وهي مقبلةٌ ، فإنَّ رؤيتها سيدةً غير رؤيتها راقصةً ، ولهذه جمالُ فنٍّ ، ولتلك فنُّ جمالٍ .

ولم نلبث إلاَّ يسيراً حتَّى وافت ، ورأيتُها تمشي مِشية الخَفِرات[1] ، كأنَّما تحترم أفكارَ النَّاس ، يزهوها علىٰ ذلك إحساسٌ نبيلٌ كإحساس الملكة الشَّاعرة بمحبَّة شعبها ؛ وانتفض مجنوناً ، وأغمض عينيه كأنَّها تمرُّ بين ذراعيه ، لا في طريقها . وكأنَّ لذَّةَ قربها منه هي الممكن ، الَّذي لا يمكن غيره .

وكان عجباً من العجب أن تحرَّك الهواء في الحديقة ، واضطربت أشجارُها ، فقال : أنت ترى : فهذا احتجاجٌ من راقصات الطَّبيعة على دخول هذه الرَّاقصة . قلتُ : آه يا صديقي ! إنَّ المرأة لا تكون امرأةً بمعانيها إلا إذا وُجدت في جوِّ قلبٍ يعشقها .

ونفذنا إلى المسرح ، وتحرَّى صاحبنا موضعاً يكون فيه منظرَ العين من صاحبته ، ويكون مستخفياً منها ثمَّ رفع السِّتار عنها بين اثنتين يكتنفانها ، قد لبسن ثلاثتهنَّ أثواب الرِّيفيَّات ، وظهرن كهيئتهنَّ حين يجنين القطن .

وبرزت (تلك) في ثوبٍ من الحرير الأسود ، وهي بيضاء بياض القمر حين يتمُّ ، وقد شدَّت وسطها بمشدَّةٍ من الحرير الأحمر ، فتحبَّكت بها ، وظهرت شيئين : أعلى وأسفل ؛ ثمَّ ألقت على شعرها الذَّهبي قلَنْسوةً حمراء من ذلك الحرير أمالتها جانباً ، فحبستْ شيئاً منه ، وأظهرت سائره ، وأخذت بيديها صفاقتين[2] وأقبل الثلاث يرقصن ، ويغنِّين نشيد الفلاحة .

لم أنظر إلى غيرها ، فقد كانت صاحبتاه دليلين على جمالها ، لا أكثر ، ولا أقلَّ ، وما أحسب الحرير الأحمرَ كان معها أحمر ، ولا أسود كان عليها أسود ، ولا

---

(١) « الخفرات » : جمع خَفِرة ، وهي المرأة التي اشتدَّ حياؤها .

(٢) « الصُّفاقات » : التي يقال لها : السَّاجات ، تكون في أصابع الرَّاقصة ، والكلمة واردة في كتاب « الأغاني » . (ع) .

لونَ الذَّهب في مِعصمِها كان لونَ الذَّهب ، كلا ! كلا ! هذه ألوان فوق الطَّبيعة ؛ لأنَّ ذلك الوجه يُشرق عليها بالجمال ، والحياة ، وذلك الجسمَ يفيضُ لها بالخفَّة والطَّرب ، وتلك الرُّوح تبعث فيها المرح والنَّشوة ؛ هذا مزيجٌ من خمر الألوان ، لا من الألوان نفسها .

وقال مجنوننا : **إنَّ أجملَ الجمال في المرأة الفاتنة هو ذاك الَّذي يجعل لكلِّ إنسانٍ نوعَ شعوره بها** ، وأنا أشعر السَّاعة : أنَّ قلبي نصفُ قلبٍ فقط ، وأنَّ نصفه الآخر في هذه وحدها ؛ فما شعورك أنت ؟

قلت : يا صديقي ! إنَّ الله رحيمٌ ، ومن رحمته : أنَّه أخفى القلب ، وأخفى بواعثه ؛ ليظلَّ كلُّ إنسانٍ مخبوءاً عن كلِّ إنسانٍ ؛ فدعني مخبوءاً عنك !

قال : لا بدَّ !

قلت : **إنَّ المصباح في الموضع النَّجس لا يبعث النُّور نجساً** ، وما أشعر إلا أنَّ النُّور ؛ الَّذي في قلبي قد امتزج بالنُّور الَّذي في عينيها .

ثمَّ كأنَّها أحسَّت بأنَّ إنساناً قد امتلأ بها ، فأدارت وجهها وهي ترقص فتلمَّحتْ صاحبنا ، وجعلت تُقطِّع الطَّرف بينها وبينه كأنَّها تعرفه ، وتجهله ، ثمَّ تبيَّنت إلحاح نظره ، فضحكت لأنَّها تعرفه ، ولا تجهله !

أما هو ! أمَّا المجنون ؛ أمَّا صاحب القلب المسكين . . . !

* * *